

وَقَالَ: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتَّبِ قَبْلَ مَوْتِهَا؛ تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطْرَانَ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ<sup>(١)</sup>.

١ - أنها لا تزيد النائح إلا شدة وحزنًا وعذابًا.

٢ - أنها تسخط من قضاء الله وقدره واعتراض عليه.

٣ - أنها تُهَيِّجُ أحزان غيره.

وقد ذكر عن ابن عقيل رحمه الله - وهو من علمائنا الحنابلة - أنه خرج في جنازة ابنه عقيل وكان أكبر أولاده وطالب علم، فلما كانوا في المقبرة صرخ رجل وقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧٨]؛ فقال له ابن عقيل رحمه الله: إن القرآن إنما نزل لتسكين الأحزان، وليس لتهييج الأحزان.

٤ - أنه مع هذه المفاصد لا يَرُدُّ القضاء، ولا يرفع ما نزل.

والنياحة تشمل ما إذا كانت من رجل أو امرأة، لكن الغالب وقوعها من النساء، ولهذا قال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها»؛ أي: إن تاب قبل الموت؛ تاب الله عليها، وظاهر الحديث أن هذا الذنب لا تكفره إلا التوبة، وأن الحسنات لا تمحوه؛ لأنه من كبائر الذنوب، والكبائر لا تمحى بالحسنات؛ فلا يمحوها إلا التوبة.

**قوله:** «تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران»: أي: تقام من قبرها.

والسربال: الثوب السابغ كالدرع، والقطران معروف، ويسمى «الزفت»، وقيل: إنه النحاس المذاب.

**قوله:** «ودرع من جرب»: الجرب: مرض معروف يكون في

(١) أخرجه: مسلم في (الجنائز، باب التشديد في النياحة، ٢/٦٤٤).

الجلد، يورق الإنسان، وربما يقتل الحيوان، والمعنى: إن كل جلدها يكون جرباً بمنزلة الدرع، وإذا اجتمع قطران وجرب زاد البلاء؛ لأن الجرب أي شيء يمسه يتأثر به؛ فكيف ومعه قطران؟!

والحكمة أنها لما لم تُعْطِ المصيبة بالصبر غُطِّيت بهذا الغطاء سريال من قطران ودرع من جرب؛ فكانت العقوبة من جنس العمل.

\* ويستفاد من الحديث:

١ - ثبوت رسالته ﷺ؛ لأنه أخبر عن أمر من أمور الغيب فوقع كما أخبر.

٢ - التنفير من هذه الأشياء الأربعة: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت.

٣ - أن النياحة من كبائر الذنوب لوجود الوعيد عليها في الآخرة، وكل ذنب عليه الوعيد في الآخرة؛ فهو من الكبائر.

٤ - أن كبائر الذنوب لا تكفر بالعمل الصالح؛ لقوله: «إذا لم تتب قبل موتها».

٥ - أن من شروط التوبة أن تكون قبل الموت؛ لقوله: «إذا لم تتب قبل موتها»، ولقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنِّ﴾ [النساء: ١٨].

٦ - أن الشرك الأصغر لا يخرج من الملة؛ فمن أهل العلم من قال: إنه داخل تحت المشيئة: إن شاء الله عذبه، وإن شاء غفر له.

ومن أهل العلم من قال: إنه ليس بداخل تحت المشيئة، وإنه لا بد

وَلَهُمَا عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: «صَلَّى لَنَا  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَّةِ .....

أن يعاقب، وإلى هذا ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية لإطلاق قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ١١٦]؛ فقال: والشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر<sup>(١)</sup>، وبهذا نعرف عظم سيئة الشرك، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقًا»<sup>(٢)</sup>.

لأن الحلف بغير الله من الشرك، والحلف بالله كاذبًا من كبائر الذنوب، وسيئة الشرك أعظم من سيئة الذنب.

٧ - ثبوت الجزاء والبعث .

٨ - أن الجزاء من جنس العمل .

\* \* \*

**قوله** في حديث زيد بن خالد: «صلى لنا»: أي: إمامًا؛ لأن الإمام يصلي لنفسه ولغيره، ولهذا يتبعه المأموم، وقيل: إن اللام بمعنى الباء، وهذا قريب، وقيل: إن اللام للتعليل؛ أي: صلى لأجلنا.

**قوله: «صلاة الصبح بالحديبية»:** أي: صلاة الفجر، والحديبية فيها لغتان: التخفيف، وهو أكثر، والتشديد، وهي اسم بئر سمي بها المكان،

(١) «الرد على البكري» (تلخيص «كتاب الاستغاثة») (ص ١٤٦). وانظر أيضًا: «جامع الرسائل» (٢/٢٥٤).

(٢) أخرجه: عبد الرزاق (٨/٤٦٩)، والطبراني في «الكبير» (٨٩٠٢). قال المنذري في «الترغيب» (٣/٦٠٧) والهيتمي في «مجمع الزوائد» (٤/١٧٧): «ورواته رواة الصحيح».

عَلَىٰ إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ؛ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ،  
فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟».

وقيل: إن أصلها شجرة حذاء تسمى حديبية، والأكثر على أنها اسم بئر،  
وهذا المكان قريب من مكة بعضه في الحل وبعضه في الحرم، نزل به  
الرسول ﷺ في السنة السادسة من الهجرة لما قدم معتمرًا، فصده  
المشركون عن البيت، وما كانوا أولياءه، إن أوليائه إلا المتقون، ويسمى  
الآن الشَّمِيسِي.

**قوله:** «على إثر سماء كانت من الليل»: الإثر معناه العقب، والأثر:  
ما ينتج عن السير.

**قوله:** «سما»: المراد به المطر.

**قوله:** «كانت من الليل»: «من» لابتداء الغاية، هذا هو الظاهر - والله  
أعلم -، ويحتمل أن تكون بمعنى في للظرفية.

**قوله:** «فلما انصرف»: أي: من صلاته، وليس من مكانه بدليل  
قوله: «أقبل على الناس».

**قوله:** «هل تدرون ماذا قال ربكم؟»: الاستفهام يراد به التنبيه  
والتشويق لما سيلقى عليهم، وإلا؛ فالرسول ﷺ يعلم أنهم لا يعلمون ماذا  
قال الله؛ لأن الوحي لا ينزل عليهم.

ومعنى قوله: «هل تدرون»: أي: هل تعلمون.

والمراد بالربوبية هنا الربوبية الخاصة؛ لأن ربوبية الله للمؤمن خاصة  
كما أن عبودية المؤمن له خاصة، ولكن الخاصة لا تنافي العامة؛ لأن  
العامة تشمل هذا وهذا، والخاصة تختص بالمؤمن.

قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي

وَكَافِرٌ،

**قوله:** «قالوا: الله ورسوله أعلم»: فيه إشكال نحوي؛ لأن «أعلم»

خبر عن اثنين، وهي مفرد؛ فيقال: إن اسم التفضيل إذا نُوي به معنى «من»، وكان مجرداً من أل والإضافة لزم فيه الإفراد والتذكير.

وفيه أيضاً إشكال معنوي، وهو أنه جمع بين الله ورسوله بالواو، مع

أن الرسول ﷺ لما قال له الرجل: «ما شاء الله وشئت». قال: «أجعلتني لله

نداً؟!»<sup>(١)</sup>؛ فيقال: إن هذا أمر شرعي، وقد نزل على الرسول ﷺ. وأما

إنكاره على من قال: ما شاء الله وشئت؛ فلأنه أمر كوني، والرسول ﷺ

ليس له شأن في الأمور الكونية.

والمراد بقولهم: «الله ورسوله أعلم» تفويض العلم إلى الله ورسوله،

وأنهم لا يعلمون.

**قوله:** «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر»: «مؤمن»: صفة

لموصوف محذوف؛ أي: عبد مؤمن، وعبد كافر.

و«أصبح»: من أخوات كان، واسمها: «مؤمن»، وخبرها: «من

عبادي». ويجوز أن يكون «أصبح» فعلاً ماضياً ناقصاً، واسمها ضمير

(١) أخرجه: أحمد (٢١٤/١)، ٢٢٤، ٢٨٣، ٢٤٧، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٣)،

والنسائي في «عمل اليوم والليلة»؛ كما في «تحفة الأشراف» (٢٦٩/٥)، وابن ماجه بنحوه

في (الكفارات، باب النهي أن يقال: ما شاء الله وشئت، وابن السني في «عمل

اليوم والليلة، (٦٧٢)، والطحاوي في «المشكل» (٩٠/١)، والطبراني في «الكبير»

(١٣٠٠٥، ١٣٠٠٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩٩/٤)، والبيهقي (٢١٧/٣).

وقال البوصيري في «الزوائد»: «في إسناده الأجلح بن عبد الله مختلف فيه، ضعفه الإمام

أحمد وأبو حاتم والنسائي وأبو داود وابن سعد، ووثقه ابن معين ويعقوب بن سفيان

والمعجلي، وباقي الإسناد ثقات».

وقال الشيخ سليمان في «التيسير» (١٢٠/١): «فقد ثبت أن النبي ﷺ لما قال له رجل . . .»

الحديث.

فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ؛ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ  
بِالْكُوكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا؛ فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي  
مُؤْمِنٌ بِالْكُوكَبِ<sup>(١)</sup>.

الشأن، أي: أصبح الشأن، ﴿مَنْ عِبَادِي﴾ خبر مقدم، و«مؤمن»: مبتدأ  
مؤخر، أي: أصبح شأن الناس منهم مؤمن ومنهم كافر.

**قوله:** «فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته»: أي: قال بلسانه  
وقلبه، والباء للسببية، والفضل: العطاء والزيادة.

والرحمة: صفة من صفات الله، يكون بها الإِنعام والإِحسان إلى  
الخلق.

**وقوله:** «فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب»: لأنه نسب المطر  
إلى الله ولم ينسبه إلى الكوكب، ولم ير له تأثيراً في نزوله، بل نزل  
بفضل الله.

**قوله:** «وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا»: الباء للسببية؛ فذلك  
كافر بي مؤمن بالكوكب، وصار كافرًا بالله؛ لأنه أنكر نعمة الله ونسبها إلى  
سبب لم يجعله الله سببًا؛ فتعلقت نفسه بهذا السبب، ونسي نعمة الله،  
وهذا الكفر لا يُخرج من الملة؛ لأن المراد نسبة المطر إلى النوء على أنه  
سبب وليس إلى النوء على أنه فاعل.

لأنه قال: «مطرنا بنوء كذا»، ولم يقل: أنزل علينا المطر نوء كذا؛  
لأنه لو قال ذلك؛ لكان نسبة المطر إلى النوء نسبة إيجاد، وبه نعرف خطأ  
من قال: إن المراد بقوله: «مطرنا بنوء كذا» نسبة المطر إلى النوء نسبة  
إيجاد؛ لأنه لو كان هذا هو المراد؛ لقال: أنزل علينا المطر نوء كذا ولم

(١) أخرجه: البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).

يقول مطرنا به . فعُلم أن المراد أن من أقر بأن الذي خلق المطر وأنزله هو الله، لكن النوء هو السبب؛ فهو كافر، وعليه يكون من باب الكفر الأصغر الذي لا يخرج من الملة .

والمراد بالكوكب النجم، وكانوا ينسبون المطر إليه، ويقولون: إذا سقط النجم الفلاني جاء المطر، وإذا طلع النجم الفلاني جاء المطر، وليسوا ينسبونه إلى هذا نسبة وقت، وإنما نسبة سبب؛ فنسبة المطر إلى النوء تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١ - نسبة إيجاد، وهذه شرك أكبر .

٢ - نسبة سبب، وهذه شرك أصغر .

٣ - نسبة وقت، وهذه جائزة بأن يريد بقوله: مطرنا بنوء كذا؛ أي: جاءنا المطر في هذا النوء أي في وقته .

ولهذا قال العلماء: يحرم أن يقول: مطرنا بنوء كذا، ويجوز مطرنا في نوء كذا، وفرّقوا بينهما أن الباء للسببية، وفي للظرفية، ومن ثمّ قال أهل العلم: إنه إذا قال: مطرنا بنوء كذا وجعل الباء للظرفية فهذا جائز، وهذا وإن كان له وجه من حيث المعنى، لكن لا وجه له من حيث اللفظ؛ لأن لفظ الحديث: «من قال: مطرنا بنوء كذا»، والباء للسببية أظهر منها للظرفية، وهي وإن جاءت للظرفية كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَنُزُّورٌ عَلَيْهِمْ مُّصِحِّينَ ۖ﴾ (١٣٧) وَبِالْبَيْتِ [الصفات: ١٣٧، ١٣٨]، لكن كونها للسببية أظهر، والعكس بالعكس؛ ف«في» للظرفية أظهر منها للسببية وإن جاءت للسببية؛ كما في قوله ﷺ: «دخلت امرأة النار في هرة»<sup>(١)</sup> .

وَلَهُمَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَعْنَاهُ، وَفِيهِ: «قَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءٌ كَذَا وَكَذَا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَاتِ<sup>(١)</sup>»: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ الْجُورِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

والحاصل أن الأقرب المنع ولو قصد الظرفية، لكن إذا كان المتكلم لا يعرف من الباء إلا الظرفية مطلقاً، ولا يظن أنها تأتي سببية؛ فهذا جائز، ومع ذلك؛ فالأولى أن يقال لهم: قولوا: في نوء كذا.

\* \* \*

قوله: «ولهما»: الظاهر أنه سبق قلم، وإلا؛ فالحديث في «مسلم» وليس في «الصحيحين»<sup>(٣)</sup>.

ومعنى الحديث: أنه لما نزل المطر نسبه بعضهم إلى رحمة الله وبعضهم قال: لقد صدق نوء كذا وكذا؛ فكأنه جعل النوء هو الذي أنزل المطر أو نزل بسببه.

ومنه ما يذكر في بعض كتب التوقيت: «وقل أن يخلف نوءه»، أو: «هذا نوءه صادق»، وهذا لا يجوز، وهو الذي أنكره الله - عز وجل - على عباده، وهذا شرك أصغر، ولو قال بإذن الله؛ فإنه لا يجوز لأن كل الأسباب من الله، والنوء لم يجعله الله سبباً.

(١) أخرجه: مسلم في (الإيمان)، باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء، (٨٤/١).

(٢) سورة الواقعة: الآية ٧٥ - ٨٢.

(٣) وأشار إليه الشيخ سليمان رحمه الله في «التيسير» (ص ٤٦١).



**قوله:** ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾: اختلف في ﴿لا﴾؛ فقيل: نافية، والمنفي محذوف، والتقدير: لا صحة لما تزعمون من أن القرآن كذب أو سحر وشعر وكهانة، أقسم بمواقع النجوم إنه لقرآن كريم.

فأقسم لا علاقة لها بـ﴿لا﴾ إطلاقاً، وهذا له بعض الوجه، وقيل: إن المنفي القسم؛ فهي داخلة على أقسم، أي: لا أقسم ولن أقسم على أن القرآن قرآن كريم؛ لأن الأمر أبين من أن يحتاج إلى قسم، وهذا ضعيف جداً.

وقيل: إن ﴿لا﴾ للتنبية، والجملة بعدها مثبتة؛ لأن ﴿لا﴾ بمعنى انتبه، أقسم بمواقع النجوم... وهذا هو الصحيح.

فإن قيل: ما الفائدة من إقسامه سبحانه مع أنه صادق بلا قسم؛ لأن القسم إن كان لقوم يؤمنون به ويصدقون كلامه؛ فلا حاجة إليه، وإن كان لقوم لا يؤمنون به؛ فلا فائدة منه، قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

أجيب: أن فائدة القسم من وجوه:

الأول: أن هذا أسلوب عربي لتأكيد الأشياء بالقسم، وإن كانت معلومة عند الجميع، أو كانت منكراً عند المخاطب، والقرآن نزل بلسان عربي مبين.

الثاني: أن المؤمن يزداد يقيناً من ذلك، ولا مانع من زيادة المؤكدات التي تزيد في يقين العبد، قال تعالى عن إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيُطَمِّئَنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

الثالث: أن الله يقسم بأمر عظمة دالة على كمال قدرته وعظمته

وعلمه؛ فكأنه يقيم في هذا المُقسَم به البراهين على صحة ما أقسم عليه بواسطة عِظَم ما أقسم به.

**الرابع:** التنويه بحال المقسم به؛ لأنه لا يقسم إلا بشيء عظيم، وهذان الوجهان لا يعودان إلى تصديق الخبر، بل إلى ذكر الآيات التي أقسم بها تنويهاً له بها وتنبيهاً على عظمها.

**الخامس:** الاهتمام بالمقسم عليه، وأنه جدير بالعناية والإثبات.

**وقوله:** ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾: الله سبحانه - يتحدث عن نفسه بضمير المفرد؛ لأنه يدل على الانفراد والتوحيد؛ فهو سبحانه واحد لا شريك له، ويتحدث عن نفسه بضمير الجمع؛ لأنه يدل على العظمة؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ...﴾ [يس: ١٢] الآية، ولا يتحدث عن نفسه بالمتنى؛ لأن المتنى محصور باثنين. والباء حرف قسم، والمواقع جمع موقع. واختلف في النجوم؛ فقيل: إنها النجوم المعروفة؛ فيكون المراد بمواقعها مطالعها ومغاربها.

وأقسم الله بها؛ لما فيها من الدلالة على كمال القدرة في هذا الانتظام البديع وما فيها من مناسبة المقسم به والمقسم عليه، وهو القرآن المحفوظ بواسطة الشهب؛ فإن السماء عند نزول الوحي مُلِئَتْ حرّاً شديداً وشهباً.

وقيل: إن المراد آجال نزول القرآن، ومنه قولهم: «نزل القرآن مُنْجَمًا»، وقول الفقهاء: يجب أن يكون دين المُكَاتِبِ مؤجلاً بنجمين فأكثر؛ فيكون الله أقسم بمواقع نزول القرآن، وقد سبقت لنا قاعدة مفيدة، وهي أنه إذا كان المعنيان لا يتنافيان تحمل الآية على كل منهما، وإلا؛ طَلِبَ المرجح.

**قوله:** ﴿وَأِنَّهُ لَفَسَّمٌ لِّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾: ﴿فَسَمٌ﴾: خبر إن، وهذا القسم أكد الله عظمته بيان واللام تنويها بالمُقَسَّم عليه وتعظيمه.

**وقوله:** ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾: مُؤَكِّد ثالث كأنه قال: ينبغي أن تعلموا هذا الأمر ولا تجهلوه؛ فهو أعظم من أن يكون مجهولاً؛ فإنه يحتاج إلى علم وانتباه، فلو تعلمون حق العلم لعرفتم عظمته؛ فانتبهوا.

**قوله:** ﴿لَقُرْآنٌ﴾: مصدر مثل الغفران والشكران بمعنى اسم فاعل، وبمعنى اسم المفعول؛ فعلى الأول يكون المراد أنه جامع للمعاني التي تضمنتها الكتب السابقة من المصالح والمنافع، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وعلى الثاني يكون بمعنى المجموع؛ لأنه مجموع مكتوب.

**قوله:** ﴿كَرِيمٌ﴾: يطلق على كثير العطاء، وهذا كمال في العطاء متعدد للغير، ويطلق على الشيء البهيِّ الحَسَن، ومنه قول النبي ﷺ: «إياك وكرائم أموالهم»<sup>(١)</sup>؛ أي: البهي منها والحسن، وهذا كمال في الذات، وهذان المعنيان موجودان في القرآن؛ فالقرآن لا أحسن منه بذاته، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

والقرآن يعطي أهله من الخيرات الدينية والدينية والجسمية والقلبية، قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِيعِ الْكُفْرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]؛ فهو سلاح لمن تمسك به، ولكن يحتاج إلى أن تتمسك به بالقول والعمل والعقيدة؛ فلا بد أن يصدق العقيدة العمل، قال ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي

(١) أخرجه: البخاري في (الإيمان، ١٢٦/١ - فتح)، ومسلم في (المساقاة، ١٢١٩/٣).

القلب»<sup>(١)</sup>، ووصف الله القرآن في آية أخرى بأنه مجيد، والمجد صفة العظمة والعزة والقوة، والقرآن جامع بين الأمرين: فيه قوة وعظمة، وكذا خيرات كثيرة وإحسان لمن تمسك به.

**قوله:** ﴿ فِي كِتَابٍ مَّكُونٍ ﴾: كتاب فعال بمعنى مفعول، مثل: فراش بمعنى مفروش، وغراس بمعنى مغروس، وكتاب بمعنى مكتوب. والمكنون: المحفوظ، قال تعالى: ﴿ كَاتِبِينَ بِمِصْرٍ مَّكُونٍ ﴾ [الصافات: ٤٩].

واختلف المفسرون في هذا الكتاب على قولين:

**الأول:** أنه اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل شيء.

**الثاني:** وإليه ذهب ابن القيم أنه الصحف التي في أيدي الملائكة<sup>(٢)</sup>، قال تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۝ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ (١٣) رَزَقْنَاهَا مِطْهَرَةً ۝ (١٤) بِيَايِدَيْ سَفَرَةٍ ۝ (١٥) ﴾ [عيسى: ١١ - ١٥]؛ فقوله: ﴿ بِيَايِدَيْ سَفَرَةٍ ﴾ يرجح أن المراد الكتب التي في أيدي الملائكة؛ لأن قوله: ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾؛ أي: الملائكة، يوازن قوله: ﴿ بِيَايِدَيْ سَفَرَةٍ ﴾، وعلى هذا يكون المراد بالكتاب الجنس لا الواحد.

**قوله:** ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾: الضمير يعود إلى الكتاب المكنون؛ لأنه أقرب شيء، وهو بالرفع ﴿ لَا يَمَسُّهُ ﴾ باتفاق القراء، وإنما نبهنا على ذلك؛ لدفع قول من يقول: إنه خبر بمعنى النهي، والضمير يعود على القرآن؛ أي: نهي أن يمس القرآن إلا طاهر، والآية ليس فيها ما

(١) أخرجه: البخاري في (الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ٣٤/١)، ومسلم في

(المساقاة، باب أخذ الحلال، ١٢١٩/٣)؛ من حديث التعمان بن بشير رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «إعلام الموقعين» (١/٢٢٥ - ٢٢٦).

يدل على ذلك، بل هي ظاهرة في أن المراد به اللوح المحفوظ؛ لأنه أقرب مذکور، ولأنه خبر، والأصل في الخبر أن يبقى على ظاهره خبرًا لا أمرًا ولا نهياً حتى يقوم الدليل على خلاف ذلك، ولم يرد ما يدل على خلاف ذلك، بل الدليل على أنه لا يراد به إلا ذلك، وأنه يعود إلى الكتاب المكنون، ولهذا قال الله: ﴿إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ باسم المفعول، ولم يقل: إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، ولو كان المراد الْمُطَهَّرِينَ لقال ذلك، أو قال: إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

والمطهرون: هم الذين طهرهم الله تعالى، وهم الملائكة، طهروا من الذنوب وأدناسها، قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ [التحریم: ٦].

وقال تعالى: ﴿يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧]، وفرق بين المطهر الذي يريد أن يفعل الكمال بنفسه، وبين المطهر الذي كمله غيره وهم الملائكة، وهذا مما يؤيد ما ذهب إليه ابن القيم أن المراد بالكتاب الكتب التي في أيدي الملائكة، وفي الآية إشارة على أن من طهر قلبه من المعاصي كان أفهم للقرآن، وأن من تنجس قلبه بالمعاصي كان أبعد فهمًا عن القرآن؛ لأنه إذا كانت الصحف التي في أيدي الملائكة لم يمكن الله من مسها إلا هؤلاء المطهرين؛ فكذلك معاني القرآن.

فاستنبط شيخ الإسلام من هذه الآية: أن المعاصي سبب لعدم فهم القرآن؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿إِذَا تَنَلَّ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٥]؛ فهم لا يصلون إلى معانيها وأسرارها؛ لأنه ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون.

وقد ذكر بعض أهل العلم: أنه ينبغي لمن استفتي أن يقدم بين يدي الفتوى الاستغفار لمحو أثر الذنب من قلبه حتى يتبين له الحق، واستنبطه من قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴿١١٥﴾ وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٦].

**قوله:** ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾: خبر ثانٍ لقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا﴾، وهو كقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا لِتَنْزِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢]، وكقوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ [فصلت: ٢ - ٣]؛ فهو خبر مكرر مع قوله: ﴿لَقُرْآنًا﴾.

وتنزيل؛ أي: منزل؛ فهي مصدر بمعنى اسم المفعول منزل من رب العالمين، أنزله الله على قلب النبي ﷺ؛ لأنه محل الوعي والحفظ بواسطة جبريل، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا لِتَنْزِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٦﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٧﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾.

**وقوله:** ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾: أي: خالقهم، ويستفاد من الآية ما يلي:

- ١ - أن القرآن نازل لجميع الخلق؛ ففيه دليل على عموم رسالة النبي ﷺ.
- ٢ - أنه نازل من ربهم، وإذا كان كذلك؛ فهو الحكم بينهم الحاكم عليهم.

٣ - أن نزول القرآن من كمال ربوبية الله، فإذا أضيف إلى هذه الآية قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾؛ علم أن القرآن رحمة للعباد أيضًا، وربوبية الله مبنية على الرحمة، قال تعالى:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ② الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿[الفتاحة: ٢ - ٣]، وكل ما أمر الله به عباده أو نهاهم عنه؛ فهو رحمة بهم.

٤ - أن القرآن كلام الله؛ لأنه إذا كان الله أنزله؛ فهو كلامه لا كلام غيره كما قاله السلف رحمهم الله، وهو غير مخلوق؛ لأن جميع صفات الله حتى الصفات الفعلية ليست مخلوقة.

والقرآن كلام الله منزل غير مخلوق.

فإن قيل: هل كل منزل غير مخلوق؟ قلنا: لا، لكن كل منزل يكون وصفاً مضافاً إلى الله؛ فهو غير مخلوق؛ كالكلام، وإلا؛ فإن الله أنزل من السماء ماء وهو مخلوق، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥] وهو مخلوق، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ أَرْوَاحٍ﴾ [الزمر: ٦] والأنعام مخلوقة، فإذا كان المنزل من عند الله صفة لا تقوم بذاتها؛ وإنما تقوم بغيرها؛ لزم أن يكون غير مخلوق؛ لأنه من صفات الله.

قوله: ﴿أَفِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهَبُونَ﴾: الاستفهام للإنكار والتوبيخ، والحديث: القرآن، والمذهن: الخائف من غيره الذي يحاييه بقوله وفعله.

والمعنى: أتدهنون بهذا الحديث وتخافون وتستخفون؟! لا ينبغي لكم هذا، بل ينبغي لمن معه القرآن أن يصدع به وأن يبينه ويجاهد به، قال تعالى: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكذِبُونَ﴾: أكثر المفسرين على أنه على حذف مضاف؛ أي: أتجعلون شكر رزقكم؛ أي: ما أعطاكم الله من أي شيء من المطر ومن إنزال القرآن؛ أي: تجعلون شكر هذه النعمة العظيمة أن تكذبوا بها، والنبي ﷺ وإن كان ذكرها في المطر؛ فإنها تشمل المطر وغيره.

## ● فِيهِ مَسَائِلُ :

الأولى : تَفْسِيرُ آيَةِ الْوَاقِعَةِ .

الثانية : ذِكْرُ الْأَرْبَعِ الَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ .

وقيل : إنه ليس في الآية حذف ، والمعنى : تجعلون شكركم تكديبا ، وقال : إن الشكر رزق ، وهذا هو الصحيح ، بل هو من أكبر الأرزاق ، قال الشاعر :

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةً اللَّهُ نِعْمَةً      عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ  
فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ      وَإِنْ طَالَتْ الْأَيَّامُ وَاتَّصَلَ الْعُمُرُ

فالنعمة تحتاج إلى شكر ، ثم إذا شكرتها ؛ فهي نعمة أخرى تحتاج إلى شكر ثانٍ ، وإن شكرت في الثانية ؛ فهي نعمة تحتاج إلى شكر ثالث ، وهكذا أبداً ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ [النحل : ١٨] .

**قوله :** ﴿ أَنْتُمْ تَكْذِبُونَ ﴾ : ﴿ أَنْ ﴾ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول تجعلون الثاني ؛ أي : تُصَيِّرُونَ شكركم تكديبا ، ولا شك أن هذا من السفه أن يقابل الإنسان نعمة ربه بالتكذيب ، إن كانت وحيًا كَدَّبَ خبره ولم يمثّل أمره ولم يجتنب نهيه ، وإن كانت عطاءً تنمو به الأجسام نسيبه إلى غير الله ، قال : هذا من النوء أو هذا من عملي ؛ كما قال قارون : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ [القصص : ٧٨] .

\* \* \*

فيه مسائل :

● الأولى : تفسير آية الواقعة : وهي قوله تعالى : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ

أَنْتُمْ تَكْذِبُونَ ﴾ ، وقد مر تفسيرها .

● الثانية : ذكر الأربع التي من أمر الجاهلية : وهي الطعن في



الثالثة: ذَكَرُ الْكُفْرِ فِي بَعْضِهَا.

الرابعة: أَنَّ مِنَ الْكُفْرِ مَا لَا يُخْرِجُ مِنَ الْمِلَّةِ.

الخامسة: قَوْلُهُ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ»؛  
بِسَبَبِ نَزُولِ النُّعْمَةِ.

الأنساب، والفخر بالأحساب، والاستسقاء بالأنواء، والنياحة على الميت.

● الثالثة: ذكر الكفر في بعضها: وهي الاستسقاء بالأنواء، وكذلك الطعن في النسب، والنياحة على الميت؛ كما في حديث: «اثنان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت»<sup>(١)</sup>.

● الرابعة: أن من الكفر ما لا يخرج من الملة. وهي أن الاستسقاء بالأنواء بعضه كفر مخرج عن الملة وبعضه كفر دون ذلك، وقد سبق بيان ذلك.

● الخامسة: قوله: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر» بسبب نزول النعمة: أي: إن الناس ينقسمون عند نزول النعمة إلى مؤمن بالله وكافر به، وقد سبق بيان حكم إضافة نزول المطر إلى النوء، والواجب على الإنسان إذا جاءت النعمة أن لا يضيفها إلى أسبابها مجردة عن الله، بل يعتقد أن هذا سبب محض إن كان هذا سبباً، مثال ذلك: رجل غرق في ماء، وكان عنده رجل قوي، فنزل وأنقذه؛ فإنه يجب على هذا الذي نجا أن يعرف نعمة الله عليه، ولولا أن الله أمر أمراً قدرياً وأمراً شرعياً أن ينقذك هذا الرجل ما حصل إنقاذ، فأنت تعتقد أن هذا سبب محض.

أما إن غرق ويسر الله له، فخرج، فقال: إن الولي الفلاني أنقذني؛ فهذا شرك أكبر؛ لأنه سبب غير صحيح، ثم إن إضافته إليه لا يظهر منها أنه

السادسة: التَّفَطُّنُ لِلإِيمَانِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ .

السابعة: التَّفَطُّنُ لِلْكَفْرِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ .

الثامنة: التَّفَطُّنُ لِقَوْلِهِ: «لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا» .

التاسعة: إِخْرَاجُ الْعَالِمِ لِلْمُتَعَلِّمِ الْمَسْأَلَةَ بِالِاسْتِفْهَامِ عَنْهَا؛ لِقَوْلِهِ: «أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» .

يريد أنه سبب، بل يريد أنه منقذ بنفسه؛ لأن اعتقاد أنه سبب وهو في قبره غير وارد، ولذلك كان أصحاب الأولياء إذا نزلت بهم شدة يسألون الأولياء دون الله تعالى؛ فيقعون في الشرك الأكبر من حيث لا يعلمون أو من حيث يعلمون، ثم قد يفتنون؛ فيحصل لهم ما يريدون عند دعاء الأولياء لا به؛ لأننا نعلم أن هؤلاء الأولياء لا يستجيبون لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأحقاف: ٥] .

● السادسة: التَّفَطُّنُ لِلإِيمَانِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: وهو نسبة المطر إلى فضل الله ورحمته .

● السابعة: التَّفَطُّنُ لِلْكَفْرِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: وهو نسبة المطر إلى النوء؛ فيقال هذا بسبب النوء الفلاني، وما أشبه ذلك .

● الثامنة: التَّفَطُّنُ لِقَوْلِهِ: «لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا»: وهذا قريب من قوله: «مطرنا بنوء كذا»؛ لأن الثناء بالصدق على النوء مقتضاه أن هذا المطر بوعدده، ثم بتنفيذ وعده .

● التاسعة: إِخْرَاجُ الْعَالِمِ لِلْمُتَعَلِّمِ الْمَسْأَلَةَ بِالِاسْتِفْهَامِ عَنْهَا؛ لِقَوْلِهِ: «أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» :

---

العاشرة: وَعِيدُ النَّائِحَةِ .

---

وذلك أن يلقي العالم على المتعلم السؤال لأجل أن يتنبه له، وإلا؛ فالرسول ﷺ يعلم أن الصحابة لا يعلمون ماذا قال الله، لكن أراد أن ينبههم لهذا الأمر؛ فقال: «أتدرون ماذا قال ربكم؟»، وهذا يوجب استحضار قلوبهم.

● العاشرة: وعيد النائحة: وذلك بقوله: «إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»، وهذا وعيد عظيم.

\* \* \*